المحاضرة الأولى:

الأنثروبولوجيا: مفهومها وأهدافها وخصائصها

تمهيد

لقد شكل الإنسان منذ أقدم العصور، موضوعا للتفكير والتساؤل، في شتى ضروب المعرفة، كالأدب، والفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا...إلخ. وشدَّ انتباه المفكرين منذ المراحل الأولى للتفكير الإنساني، اختلاف السمات الجسمية لبنى البشر، واختلاف ألسنتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، ومعتقداتهم، وغير ذلك من المظاهر. وتراكمت وتطورات محاولات المفكرين في هذا المجال حتى أسفرت في القرن التاسع عشر عن ظهور نظام حديث من نظم المعرفة، يُدعى الأنثروبولوجيا.

وسنحاول فيما يلي التعرف على معنى الأنثروبولوجيا لغةً واصطلاحًا، ثم نحاول تحديد أهم أهداف الأنثروبولوجيا، والتعرف على مختلف الخصائص التي تميزها عن غيرها من العلوم.

أولا: مفهوم الأنثروبولوجيا

يعود مصطلح "أنثروبولوجيا" من الناحية اللغوية، إلى الكلمة اليونانية التي تنقسم إلى مقطعين: (Anthropos) الذي يعني الإنسان، و(Logos) الذي يعني علم أو دراسة، والاصطلاح في مجمله يدل على "علم الإنسان".

أما اصطلاحًا، فيمكن تعريف الأنثروبولوجيا، على أنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نُظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة ويقوم بأعمال متعددة، ويسلك سلوكا محددا؛ وأيضا هي العلم الذي يدرس الحياة البدائية والحياة الحديثة المعاصرة، ويحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمدا على تطوره عبر التاريخ الإنساني الطويل. بمعنى أن الإنسان يشكل الموضوع الأساس لدراسة الأنثروبولوجيا بغض النظر عن اختلاف ظروف الزمان والمكان.

ولقد عَرَّف عاطف وصفي الأنثروبولوجيا بقوله: يهتم هذا العلم بالجنس البشري فيدرس أجسام أفراده ومجتمعاتهم ووسائل الاتصال فيما بينهم وكل ما ينتجونه سواء أكان مادة أم علاقة اجتماعية أم فكرة.

وفي ذات السياق، عَرَّفَت الأنثروبولوجية الأمريكية، مارغريت ميد (Margaret Mead) هذا المجال المعرفي من خلال ما يقوم به الأنثروبولوجيون من أعمال، قائلة: إننا نصنف الخصائص الإنسانية للجنس البشري (البيولوجية والثقافية) كأنساق مترابطة ومتغيرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس متطورة. كما نهتم أيضا بوصف النظم الاجتماعية والتكنولوجية وتحليلها، إضافة إلى البحث في الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته. وبصورة عامة، نسعى –نحن الأنثروبولوجيين– لتفسير نتائج دراستنا والربط فيما بينها في إطار نظريات التطور، أو ضمن الوحدة النفسية المشتركة بين البشر.

ولقد لخص مصطفى سليم شاكر هذا المعنى الأخير في قاموسه للأنثروبولوجيا بقوله: الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان طبيعيًا واجتماعيًا وحضاريًا. ويتمتع هذا التعريف الأخير بخاصية تميزه عن غيره من التعريفات الأخرى، ألا وهي الجمع بين الأقسام الأساسية للأنثروبولوجيا، وهي: الأنثروبولوجيا الفيزيقية، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، والأنثروبولوجيا الثقافية.

وهكذا يتبين أنّ الأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان من الناحية الجسمية، ويدرس سلوكه في السياق الثقافي والاجتماعي بصورة عامة. (يتبع...)

ثانياً: أهداف الأنثروبولوجيا

انطلاقا من تعريف الأنثروبولوجيا، نستطيع القول أن هذا العلم يسعى إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، يمكن تلخيصها كالآتي:

1–كشف الصفات الفيزيقية التي تميز الجنس البشري عن سائر الكائنات الأخرى، وكذلك تلك الصفات التي تساعد في التمييز بين مختلف السلالات البشرية وتفرعاتها: فالإنسان كائن فريد من نوعه، فهو يتميز من باقي الحيوانات الأخرى ببعض الصفات الجسمية، كتطور مخه وتعقده، وانتصاب قامته...إلخ؛ ورغم الأصل المشترك لبني الإنسان، توجد أنواع بشرية متنوعة.

2–تحديد أوجه الاختلاف والتشابه بين مختلف الثقافات: وهذا عن طريق الدراسة المقارنة، وفي هذا الإطار يجري البحث على الإجابة عن السؤال الآتي: ما سبب التنوع الثقافي واللغوي عند الإنسان؟

3–التعرف على طبيعة الثقافة البشرية وعوامل تغيرها: فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يملك أنماطا للسلوك متغيرة باستمرار، وهذا ما يسميه علماء الأنثروبولوجيا بالثقافة.

ثالثا: خصائص الأنثروبولوجيا

يتميز هذا العلم عن العلوم الأخرى بعدة خصائص أهمها:

1-التركيز على ما يسمى بالمجتمعات البدائية (Sociétés Primitives) التي تتسم بأنها مجتمعات محدودة في عدد سكانها، وتتصف بالتجانس، والعزلة، وبساطة نظمها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية.

2-الاعتماد على الدراسة الحقلية لتجميع المادة العلمية (المعايشة الميدانية)، أي أن يعيش الباحث الأنثروبولوجي في المجتمع الذي يدرسه، ويقطع اتصاله بالعالم الخارجي ويحصر اهتمامه بالجماعة التي يدرسها، سواء كانت قرية، أم قبيلة، أم عشيرة. وننوه بالقول هنا، إلى أن مالينوفسكي، يعد أول علماء الأنثروبولوجيا الذين قاموا بتطبيق هذه الإجراءات على أرض الواقع، بل كان أول من وضع أسس الدراسة الأنثروبولوجية الميدانية، وشرح شروطها بصورة أكاديمية، في كتابه حول "بحارة غرب المحيط الهادي" (Argonauts of Western Pacific)، الذي صدر في عام 1922.

3-استخدام المنهج المقارن كوسيلة تعين على الفهم والتحليل: فالباحث في مجال الأنثروبولوجيا، يقوم باستخدام المقارنات زمانيًا كأن يقارن بين ظاهرة اجتماعية أو نظام اجتماعي في مجتمع واحد في فترتين زمنيتين مختلفتين؛ أو يقوم باستخدام المقارنات مكانيًا، كأن يقارن ظاهرة اجتماعية أو نظام اجتماعي بين مجتمعين بعيدين من الناحية الجغرافية.